اهل التقادير واصحاب السعي والتدبير

لحضرة الكاتب الفاضل قسطاكي افندي الحمصي في حلب

(تابع لما قبل)

هذا طرَفٌ مما يعاينهُ الناظر في تلك الاقطار المسعودة فاذا تفقدت احوالها بعين الناقد الخبير وجدت ثمت من رغد العيش وسعادة الحياة وانتظام الامور وبسطة العدل وترقي العلوم وتقدم المعارف وعزة النفوس ومكارم الاخلاق وحرية الضمائر وسلامة النيات واستقامة الاعمال ما تحكم معهُ بان هذه البقعة قد نالت من التوفيق النصيب الاوفر وبلغت من الاسعاد غاية الآمال

واذا نظرت الى المدينة الفلانية وقد طلّقها الجدُّ وفارقها البخت رأيت ازقتها الضيقة القصيرة المعوجَّة مظلمةً بما عُقد فوقها من الاقبية وامتدّ من السوابط حتى انك لا تكاد تهتدي الطريق ولا تستطيع ان تميز المارّين في رائعة النهار وفي وسط اكثرها مجاري الاقذار تكشفت للناس وسرت روائحها الخبيثة في انوفهم فيعبر ذو الذوق فيها راكضاً ولا يصدّق انهُ ينتهي منها سالماً معافى وهو ينور وينجد ويسقط وينهض متعثّرًا بالكلاب النائمة في وسطها او المتجمعة على قمامةٍ قد رماها السكان بجوار تلك الطريق الموحلة . هذا عدا ما يزحمك من الحمير المحملة حجارة او زبلاً والجمال المثقلة بالاحمال العظيمة حتى انها لتسد اعرض طرقات المدينة والطامّة الكبرى عندما يلتقي الجمل بالجمل والناس بينهما معرّضين لرحمة هذه الحيوانات فضلاً عما يعترض لك من سائقي بغال النقل الذين يمرّون بك كالسهم المنطلق فان اخذت لنفسك الاهبة والتجأت الى دهليز (والدهاليز بحمد الله كثيرة) او حانوت او باب مفتوح سلمك الله

من الخطر ونجاك والاّ وقعت صريع سَوقهم وكنت من المحطمين ولا من يسأل عن ذلك ولا من يردع . ثم انك لتمرّ بدكاكين الباعة وقد نصبوا على جانبيها وامامها اهراماً من السلع الكاسدة والمتاع الرديء والبضائع التي تقلبت عليها الاحقاب وتناقلتها يد الخلف عن السلف ونسج عليها العنكبوت قصوراً وهي ليست من النفاسة في شيء منصوبةً كلها فوق صناديق كبيرة فارغة وقد يضع الفرد من الباعة ستة او سبعة من تلك الصناديق الواحد امام الآخر اوفوقهُ وهو غير مبالٍ بتضييق الطريق او السوق فوق ما هي عليهِ من الضيق وقد شرحت طرفاً من هذه الحال في فصل آخر . واذا مررتَ بسوق لم تسقف بالحجر او بالخشب تراها مسقوفة بالحصر العتيقة المخرّقة والخرق البالية الممزّقة والزبابيل المنتنة ممدودة على اعواد رفيعة او اخشاب مفخورة والسنانير والكلاب تركض فوقها من سوق الى اخرى وقد يتفق وقوع كلب او سنور على رأس احد العابرين . هذا عدا غريب منظر هذه السقوف وقد تدلت منها اطراف تلك الحصر والخرق البالية خصوصاً ايام الامطار اذ تسيل منها المياه القذرة فوق المارين وتنصبّ على رؤوسهم واعناقهم فتصبغ ثيابهم بالالوان المختلفة وكأنها تعارض النقوش البديعة التي يراها السالك على جدران المدينة المسعودة . ثم انك لا تخطو بضع خطوات حتى ترى رجلاً متقرفصاً او مستوفزاً يبول على حائط في عرض الطريق او الشارع وهو متنحٍّ ذراعاً او اكثر عن الحائط لا يستحي من فعلتهِ هذه ولا يخجل ممن يمرّ بهِ من اهل الاقدار وصبيان المكاتب وربات الخدور ذوات الصون والعفاف . وقد تمرّ بفسح (تضارع الساحات التي تقدم ذكرها ولا تشبيه) قامت في وسطها شجرة قديمة العهد قد نخرها السوس واتخذها جيران ذلك لمكان لربط خيلهم وبغالهم وحميرهم والجمال قد أُنيخت

باحمالها واثقالها والزبل قد ملأ تلك الفسحة بين منشور ومنشور والذباب يهاجم المارين ويلاطم وجوههم ويطن في آذانهم والكلاب تنبح ان مر بها ذو نعمة على عكس ما قال بعض الشعراء في باب الغنى والفقر لانها قد ألفت اكل العظام النيئة وفتات الخبز اليابس وشم رائحة الدهن الخبيث والسمن المنتن ولم تعتد شم الطيوب التي يتطيب بها اهل الذوق السليم ولا ألفت عيونها النظر الى زيّ اهل الحضارة والنعيم. وقد تمرّ بمطاعم تبّا لها من مطاعم فان رائحة لحم الجمل ولحوم الماعز والغنم الباثثة المشوية على النار يتقزز منها ذو الذوق وتعافها النفوس الابية وأضف الى ذلك رائحة دفرة الجزار صاحب المطعم المذكور والصحاف الموضوع فيها المشويّ والخوان الوخم وكل ما تشاهدهُ في ذلك الدكان مما يُنفَر منهُ ويُبتعَد عنهُ. واذا اجلت طرفك فيما حولهُ من دكاكين الجزّارين والبقالين والسمانين والخبازين القذرة وفي ملابس اصحابها الوسخة وفي الباعة على ظهور الحمير الذين يعترضون لك في وسط الطريق بالاحمال الكبيرة وفي الكلاب المتنقلة من دكان الى آخر وفي هراشها بين ارجل العابرين وغير ذلك من المناظر والاحوال التي تنقبض منها النفس وتشمئز عدا ما تراهُ على وجوه الاهلين من سيماء الكآبة والقنوط حكمتَ جازماً بان التوفيق لم يمرّ على تلك الربوع ولا جاز بهاتيك المدينة وانهُ سلمها الى رحمة النحوس تتلاعب بها يد البؤس وتتقلب بين عوامل الشقاء فهي عُرضة مصائب الدهر ونوازل الايام لا تكاد تتخلص من وباء حتى ينزل بها حريق هائل او تنهض من مجاعة وقحط حتى تقع في كساد مفقر وأيقنتَ ان السعد والنحس هما الفاعلان في تقدم هذا وتقهقر ذاك ونجاح زيد وفشل عمرو وعلوّ سعيد وانحطاط صالح وكلهم كما علمت لم يسعدوا باهليتهم وسعيهم ولا شقوا لخمولهم وكسلهم بل هي احكام التوفيق

وقضاء الحرمان

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألقِ دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً تجيء بحمأةٍ وقليل ماء

وقال الفريق الثاني لولا السعي والعمل لما وصل الانسان الى حالة التمدن التي نراهُ عليها الآن في اكثر جهات الارض ولا قيّض لهُ الاجتماع الآئل الى غبطة نوعهِ بل لما تيسرت لهُ اسباب البقاء ولولاهما لما عاش في بدء امرهِ وقد كان تائهاً في قفار الجهل هائماً على وجههِ في سباسب الهمجية ضارباً في الاودية والجبال ورآء حيوان يقنصهُ او نبات يأكلهُ او سمكة يصطادها غير عالم من سابق امرهِ شيئاً ولا مقدّراً امراً من آتيهِ وانما جلّ سعيهِ كان ورآء قوتهِ فلولا سعيهُ وعملهُ لما استتبّ لهُ الحصول على غذآئهِ اليومي وبسببهما أُتيح لهُ مصادفة سواهُ من بني جنسهِ فتعاونا على دفع المضرّة وجلب المنفعة وزاد سعيهما وعملهما فوجدا آخرين من نوعهما عائشين على شاكلتهما فانضمت فئةٌ الى اخرى وتوالى ذلك الانضمام حتى كانت العشائر فزادت كالياتهم على حاجيّاتهم بالمعاونة على السعي والعمل فاحتبسوا الحيوان الجامح النافر وروّضوهُ للانتفاع بهِ واتخذوا وبرهُ فنسجوهُ خياماً ثم توصلوا الى معرفة الحبوب النافعة وتمييز الاثمار الصالحة ثم الى طريقة حفظها وزرعها وحصدها وطحنها وعجنها وخبزها وكل ذلك لا يتم الاّ بالسعي والعمل ثم شرعوا في بنآء القرى فالبلدان الصغيرة فعمارة المدن والامصار العظيمة ولا يخفى ما تخلل ذلك من ترقي الانسان في الصنائع والعلوم والفنون وسن الشرائع مما احتاج الى الكدّ والنصب والعنآء الطويل ولم يتم الاّ ويد الانسان عاملة فيهِ تجري بهِ احكامها في السرآء والضرآء ولو اقام يترقب السعود والطوالع ويترصد النجم اللامع ويتمسك بالفأل

الكاذب الخادع ويعتقد بالحظ والتوفيق ويعقد مع البخت العهود والمواثيق لما اكل الاّ الجوع ولا عاش الاّ اياماً او بعض ايام

واذا راجعت تاريخ القرون الغابرة وتأملت في حالتي العمران والخراب رأيت السعي والعمل ملازمين أُولى الحالتين بل ربما وضح لك ان الاعتقاد بالتوفيق والحرمان هو احد اسباب الخراب بل اشدُّهُ ضربةً على العمران وقلّ ما تجد هذه العقيدة في البلاد السعيدة وكثيرًا ما ترى علماء وعقلاء تلك البلاد يستخفون بها وجل اتكالهم على سعيهم واعمالهم اليدوية والعقلية وتجد هذا المبدأ شائعاً في البلاد الشقية المنحطة وعند الامم التي لم تشرق عليها انوار العلوم الصحيحة والشعوب التي ألفت الكسل وسرى في عروقها سمّ الحسد ودب في دمها الخمول وماتت منها العصبية وعدمت محبة الوطن وفقدت من بينها عزة النفس وفارقت رؤوسها النخوة . وكلما تتبعت امر هذا الزعم وجدتهُ متأصلاً في النحوت الذين يلجأون اليهِ سترًا لمعايبهم ودفعاً لتقريع مؤنبهم على قاعدهم عن العمل وقد لا يكتفون بذلك فيتخذون هذا المبدأ ذريعةً للتنديد بذوي الاقدار وارباب المراتب واهل العلم والفضل والثروة الطائلة ممن لم يصلوا الى تلك المنزلة ولم يبلغوا ما نالوهُ من الشهرة والغنى الاّ بعد الجهد والعناء وطول الروية والتفكر ومزيد الاكباب على الدرس وسهر الليالي ومعاركة الايام ومعاناة الامور العظام ولله ابو الطيب حيث قال

تريدين لقيان المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشهد من ابر النحلِ

ستأتي البقية